المجاهد العربي محمد علي الطاهر

وصف بقلم

الشيخ محمد طه الولي

من علماء بيروت

المجاهد العربي محمد علي الطاهر

وصف بقلم

الشيخ محمد طه الولي

من علماء بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه ، فمِنهُم
مَن قضَىٰ نحبَهُ ومِنهُم مَن ينتَظِر وما بَدَّلوا تبديلا

القرآن الكريم

ابو الحسن محمد علي الطاهر

عندما غادر مصر في ١٦ نيسان(ابريل)١٩٥٥ بعد ان اقام فيها نحو اربعين عاما

أبو الحسن محمد علي الطاهر

هذه الكلمة درجت فيها على خلاف مألوف الناس وعادتهم في امثالها ، فلقد تواضع اهل العلم في غابر الزمان وحاضره على ان يتربصوا في دراسة الرجال الممتازين على اقرانهم من مجتمعهم ، حتى يستوفيهم الله الى جواره وتغرب عن افق الوجود شموس حياتهم لتغيب في سرمدية الازل ، ويلحقوا بمن تقدمهم من الاسلاف الى عالم الحق والخلود . بينما اخذت نفسي بالكتابة عن السيد محمد علي الطاهر وهو ما يزال بعد في بحبوحة العمر الاغر الذي ندعو الله عز وجل ان يبارك في سنيه ويزيده من امده ، مع ما يليق به من الصحة والكرامة والسؤدد .

وما كان ذلك مني عن شذوذ او نشوز ولكني وجدت هذا المجاهد الصامد نسيجا وحده بين الرجال ، وانه استطاع ان يجعل من حياته المخصبة طرازا مرموقا من الخصائص الفريدة التي تثير حولها الشوق الى متابعتها وتقصيها ، للافادة من تجاربها وحكمتها ، اذ هو بالفعل مدرسة توجيهية تزيدها الايام ، كلما امتدت وتعاقبت ، قدرة على السماح والعطاء من الوطنية الصادقة والاخوة الصالحة ، انطلاقا ثابتا على دروب الحق الذي لا يروغ به الهوى عن الجادة ، ولا يضل به المنطق عن السلامة ولا تلجمه مطامع النفس واهواؤها عن اعلان الصراحة المجردة والعمل المخلص .

ولابي الحسن على اخوانه ومحبيه ان يجعلوا من سيرته فيهم ومن اجلهم قدوة حية يستمدون منها النصيحة في الله ورسوله لعامة المسلمين وخاصتهم حتى تقر عينه وتطمئن نفسه الى علو مكانه في امته وقومه بما قدم لهم جماعة وافرادا من جهاد في سبيل عزة اوطانهم ونصرة ايمانهم في مشارق الارض ومغاربها .

اجل اني بهذه العجالة لا ادعي تقديم السيد محمد علي الطاهر الى دنيا العروبة والاسلام ، لان آثاره ومآثره قد سبقتني الى ذلك قبل ان تحوني ارادة القدر من عالم الذر الى عالم البشر ، ولكنها صفحات اردت بها ان تكون ضفائر من اكاليل الوفاء والعرفان لرجل تكاملت فيه معادن الخير للبلاد

حتى لا تكاد سنة من سنيه المباركة تخلو من البر الذى ينفع الناس ويخدم الوطن ·

ولست ازعم اني ادركت بصفحاتي هذه وبكلماتي العجال معالم ابي الحسن من كافة النواحي التي تحدد شخصيته الانسانية ومناقبه الوطنية ، لان مثل هذه المعالم تبدو واضحة صريحة فيما خطت يمينه هو بالذات من الصحف المنشورة والكتب المؤلفة ، والمقالات المتفرقة ·

لقد ارسل احد كتاب الفرنجة في اوروبا ذات يوم قولة ذهبت من بعده على انها قاعدة محكمة من قواعد الفكر وعلم النفس وهي : «ان الاسلوب هو الرجل» ··

ولست ارى هذه القاعدة تعكس معناها اكثر مما ينعكس شخص محمد علي الطاهر على اسلوبه ، حتى ليخيل الى المرء وهو يقرأ مؤلفاته انه ينظر اليه بعينيه ويسمعه باذنيه ويلمسه بكلتا يديه ·· ولو ان مصورا موهوبا اراد ان يرسم محمد علي الطاهر في صورة كريكاتورية معبرة من خلال آثاره المكتوبة لاكتفى بما يقرأ ، دون حاجة الى شخص الكاتب بالذات، وتلك لعمرى احدى مميزات منشىء الشورى التي جعلت منه احد فرسان القلم الى جانب كونه احد اعلام الجهاد ··

وهكذا فانه كما يعرف المرء من رسمه ، فان ابا الحسن محمد علي الطاهر يعرف من اسلوبه ، لانه لا يكتفي بان يعكس روحه وطبيعته على ما يكتب ، بل هو يصر على ان يكبح زمام قلمه بالاغراض التي يريدها لينا او قسوة وشدة اورقة ، الا في الحدود التي يعنيها دون جنوح الى الزيادة ، ولا ميل الى النقصان ، حتى لكأنما الكلمة بين انامله موزونة بميزان! وهذا ما يجعل عبارته محتفظة دائما بجدتها وحيويتها وهدفها ، مهما تقادم بها العهد او تقلب عليها الزمان ··

وكثيرا ما انطلقت شباة قلمه بالجملة المحبوكة التي تأخذ سبيلها الى الخلود والبقاء وكأنها المثل السائر، تستهوي الكتاب المجيدين لان يستعيدوها كلما ارادوا توشية موضوعاتهم في التاريخ والسياسة ، وتراجم الرجال بالمأثور من القول ، والطريف الجميل من الاوصاف والنعوت ··

فاذا وقعت العين على عنوان (امير البيان) ادرك القارىء ان المقصود بهذا اللقب الموجز علامة عصره وكاتب دهره الامير شكيب ارسلان · واذا تحدث اللسان عن (امير السيف والقلم) لمع في الذهن على الفور اسم المجاهد المغوار الامير عادل ارسلان رحمهما الله · واذا اشارت الصحف الى كلمة

(المفتي الاكبر) فلا يشك القارىء بانها تريد سماحة السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين الشهير ، وصاحب رايتها في الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية ، وحين يتساءل الناس عن آخر مآثر (صقر شمال افريقية) فانما يتساءلون في الواقع عن بطل استقلال تونس السيد الحبيب بورقيبة ·

وهكذا من امثال هذه الكنى والالقاب التي اطلقها ابو الحسن لتكون الى جانب اسماء الرجال اعلاما عليهم مثلما كان لقب (المجاهد العربي الكبير) عنوانا لاسم محمد علي الطاهر وعلما عليه·

والكلام عن اوليات ابي الحسن وامثاله السائرة ان قال او كتب في تعريف النابهين من ابناء الامة العربية ورجالات الاسلام،اضحى من البدهيات التي تضيق عنها مثل هذه الفاتحة المختصرة بين يدي عجالتي عنه · فلا بدع اذا تركت القارىء يجري وراءها ويتقصاها في آثاره من الصحف والكتب والمقالات التي جعلها يراعه البارع مصدرا موثوقا لنهضة العرب الحديثة ويقظة العالم الاسلامي المعاصر ·

وفي هذه الفاتحة لا يتفرغ المجال الى أبعد مما يستوعب التقديم او التمهيد للموضوع · فلا بد من أن نرفع القلم عن الاسترسال فيما يغني عنه الرجوع الى ما كتب ابو الحسن نفسه· ويكفينا ان نرد القارىء الى الصفحات ذوات العدد العديد في الكتب والصحف التي صدرت له تحت العناوين الاتية:

(١) ــ نظرات الشورى ص ٢٧٠ صدرت في مصر ١٩٣٢

(٢) ــ ذكرى الامير شكيب ارسلان ص ٥٥٠ صدرت في مصر ١٩٤٧

(٣) ــ اوراق مجموعة ص ٥٢٠ صدرت في مصر ١٩٤٨

(٤) ــ معتقل هاكستيب ص ٧٠٠ صدرت في مصر ١٩٥٠

(٥) ــ ظلام السجن ص ٩٠٠ صدرت في مصر ١٩٥١

(٦) ــ جريدة الشورى صدرت في مصر ١٩٢٤ ــ ١٩٣١

(٧) الشورى (باسم الشباب ثم باسم العلم المصري) صدرت في مصر ١٩٣٧ ــ ١٩٣٩

(٨) ــ رسائل ومقالات ونشرات صدرت في مختلف الصحف والمجلات العربية والعالمية في الوطن العربي ودار الاسلام حتى اندونيسيا وبقية المهاجر الافريقية والاميركية نحو الف مقالة ، في مختلف شؤون العالم الاسلامي ، كالقضايا اليمانية ، والسعودية ، والتونسية ، والعراقية ،

والجزائرية ، والليبية ، والسورية ، والاندونسية ، والمغربية ، ومسائل مسقط وعمان والبريمي ، وقضية عدن والجنوب العربي او اليمني ، وهناك ملاحقته لزناديق الوطنية واعوان الاستعمار ، في جميع الاقطار والامصار ، وكيف تتبعهم اينما كانوا وحيثما ثقفوا ..

ففي هذه الاوراق سجل ابو الحسن محمد علي الطاهر تاريخ امته ، وخطط للاجيال من حاضرة ومقبلة معالم الطريق ، تحت اضواء الحقيقة والصدق والاخلاص من اجل مستقبل عربي اسلامي امثل .

الشيخ طه الولي

بيروت في رمضان المبارك سنة ١٣٨٥ هـ

كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦٦ م

محمد علي الطاهر

وصف بقلم الشيخ محمد طه الولي

من علماء بيروت

من هو محمد علي الطاهر

انه يكاد يكون الانسان الوحيد الذي وهبته لي الصدفة العابرة ، في حين كنت بالغ الحرص على التعرف اليه باي وسيلة او أي ثمن . واذ فيض لي ان عرفته فعلا عن كثب ، بعد ان انطبع اسمه الكبير في ذهني من بعيد ، وجدتني على غير كلفة مني ولا قصد ، مشدودا اليه بسبب متين من التقدير والعرفان والمحبة ، ذلك باني لمحت في شمائله الغر نموذجا نابضا بالحياة ، لاولئك النفر من عمالقة الانسانية ، الذين تجود بهم العناية الالهية ، وتضعهم منة منها ورحمة ، في دروب المتعبين ، من الذين تنكر الدهر لهم ، من غير جريرة اتوها او زلوا اليها ، لعلهم ينثنون عن متابعة ما هم فيه من خيبة وحسرة وانكماش ، وسوء ظن بالايام ، وما فيها من مظالم الاقدار .

ذلكم هو « محمد علي الطاهر » وان شئت فقل «ابو الحسن» . وان اردت الصحيح فقل (المجاهد العربي الكبير) فهو على كل حال الرجل الفذ الذي اقترن اسمه ولقبه وكنيته باجمل ما تحتمل كلمات اللغة العربية من معاني الكرامة التي لا تعرف الركوع ، والاباء الذي لا يشوبه الخضوع ، والوفاء الذي يتنزه في حالتي الرضى والغضب عن الشر والاذى . حتى غدا الاسم وصاحبه في بلاد العروبة والاسلام عنوانا ساطعا يتخذ منه المناضلون من اجل الحق والحرية والخير ، ميزانا وضيئا يستهدونه في شحذ العزائم ، حتى لا يعروها الوهن ، وعضاعفة الهمم حتى تثبت امام المصاعب والعراقيل والعقبات .

ان هذا الرجل الذي تواشجت فيه معاني الرجولة،لم يعد انسانا عاديا، تمر به الايام او يمر بها دون ان يترك بها اثاره بعد ان تترك فيه آثارها ،

بل انه فيما هو عليه من تجارب وجهود وقيم ، لواحـــد من ذلـــك الطراز العجيب من الاشخاص « النخبة » الذين تنفرج عنهم الحياة على فترةمن الايام العصيبة كلما اشتدت الحاجة الى وجودهم ، لتعود الثقة من خلالهم الى النفوس القلقة ، حتى يبقى المجتمع راغدا في بحبوحة الامل بغد مشرق لا تعكره مرارة الامس الكنود !...

الرجل الذى جعل من الفقر غنى ومن التعب راحة

رأيت الناس الذين بلوتهم منذ وعيت الدنيا ، فمنهم من يدل بماله وقد طرفت عينه اشعة الذهب المكنوز فلا يرى بها الا جاه (النقود) وما اليها من معادن الثراء ، ومنهم من استخفه جمال جسمه او شكله ، فراح يختال بـه وكأنه الطاووس في حديقة الحيوانات ... وآخرون من هؤلاء الـناس ناءوا تحت ما حملوه او توارثوه من القاب الحكم ، فهم يتخذون من هذه الالقـاب تاجا يعرضونه في المجالس والمجتمعات والمناسبات ، يستدرون بـه الانتبـاه والاحترام . ولكني لم ار من هؤلاء جميعـا واحـدا استطـاع ان يثق بنفسه جاعلا من الفقر العفيف وسوء الطالع المفروض ، والمتاعب المتلاحقة ، طيلسان كرامة واعتزاز ومجد ، يجرر اذياله الموشاة بالامجاد في كل آن ومكـــان ، متطاولا به على سائر الالقاب والصفات والنعوت ، دون ان يجد غيره فيمـــا ذهب اليه انكارا او استنكارا .

نعم ان محمد علي الطاهر ، ينهج سبيله الى اعلى المقامات التي تواضع المجتمع على سياجها بالاحترام ، ومقابلتها بالانحناء ، وهو لا يحمل عـــلى عاتقه من مظاهر الجاه الا ذلك الثوب الفضفاض الذى حيكت نسائجـــه من اشواك الحرمان المتصل ، وآلام النكران الجاحد ، او عثرات الزمان وغدرات من اتخذهم اصدقاء من الاخوان والخلان ، ومع ذلك فان هذه المقامات المهيبة لا يسمعها وهو بين يديها الا الشعور بانها هي التي بين يديه،وتتلقاه بما هو له اهل من البشاشة والترحيب والاجلال ، طبما في ان تجد عنده الا حدوثـــة الحسنة والرأى الحميد . لان الذى يحدث به ابو الحسن او يراه سيكـون حتما المثل السائر بين الناس في الحل والترحال .

كل لقب زائل الا لقبه

ولا غرو ، فان اشواك الحرمان وآلام النكران ، وعثرات الزمان وغدرات الشام من الاخوان والخلان .. هذه الخيوط التي منهـا حيك طيلسان السيد محمد علي الطاهر ، هي التي اعطته اللقب المنيف الـــذى استعصى عـلى

الانقلابات العسكرية والثورات الاجتماعية والمناورات الحزبية ، وتقاصرت دون الوصول اليه ، فقد زالت تلك الالقاب واجتاحتها القرارات والبلاغـات والقوانين التي انهمرت من دواوين الحاكمين والثائرين من العسكريين بالغاء الالقاب من كل درجة ومن كل لون ، فتمكنت من الغائها هي واصحابها الذين يتحلون بها ، وبقي محمد علي الطاهر والقابه في منجاة من ذلك الالغاء .

« فلان باشا » زال لقبه ، او زالا معا .. « وفلان بك » اصبح فلانـــا فقط ، بدون « بك » ... حتى الخلفاء ظل الله على الارض ، والملـــوك وهم ملح الوجود للدول ، والامراء الذين تنبض في عروقهم دماء الشرف الزرقاء.. حتى الاباطرة الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس بصولاتهم وصولجـاناتهم ، لم يعودوا بعد انهيار عروشهم المنيفة اكثر من رجال عاديين ليس قبل اسمائهم ولا بعدها الا الفراغ المطبق ... حتى رئيس جمهورية شقيقة فان اسمه بعد ولا بعدها الا الفراغ المطبق .. حتى رئيس جمهورية شقيقة ، فان اسمه بعد مجرد مواطن عربي اول « سابقا » .

المجاهد العربي الكبير

الا محمد علي الطاهر ، فان لقبه الرائع « المجاهد العربي الكبير » يقي معتصما به ، متحصنا باسمه ، يرافقه في كل مكان عند الاصدقاء المخلصين، او الاعداء الحاقدين .. على الرسائل الخاصة ، وفي بطاقات الـــدعوات ، وفوق ما تكتبه الصحف له، او تكتبه عنه.. حتى براءات الاوسمة التي تتواتر عليه من المشرق والمغرب ، فانها الى جانب القاب موقعيها الرسمية من ملوك الدول ورؤسائها ، تحتفظ للسيد محمد علي الطاهر بلقب (المجاهد العربي الكبير) دون زيادة ولا نقصان .. بل قد يكون مع الزيـــادة في التكريم ، ولكن حتما دون نقصان ...

وقد يخيل الي ، وانا لا ابالغ ، ان احدهم لو وضع على غـلاف رسالة بريدية عبارة « المجاهد العربي الكبير » دون ان يتبعها باسم محمد علي الطاهر لما اخطأت هذه الرسالة طريقها الى داره في بيروت على ساحل بحر الشام!

فليهنأ السيد محمد علي الطاهر بلقبه الثابت الذى اصبح سمـــة له وعلما عليه ، يأتي متهاديا اليه من بواسق الجبـــال في اندونسية من آسيا حتى شواهق الناطحات في اميركا ، مرورا فيمـا بينهما مـن مفاوز افريقيا ومسالك اوروبا ... انه لقب اتعب خصوم صاحبه بقدر ما تعب صاحبه حتى استحق الاستئثار به دون سواه ..

واذا كان اصحاب الالقاب الرسمية ترتعش قلوبهم جزعا من يوم تزول فيه عنهم القابهم الطنانة ، او يجدون انفسهم مضطرين ذات يوم لان يلحقوها بكلمة « السابق » اذا كان اصحاب هذه الالقاب في حذر وخوف من حلـــول هذا اليوم ، فان السيد محمد علي الطاهر يجد لقبه الكريم في حرز حريز من غوائل الايام وعبث المغرضين من كافة الانام ، لان هذا الرجل الفـذ اكتسب حليته من هذا اللقب بالجدارة الجدية النابعة من طبيعة حياته الشخصيـة ، التي طوى اعوامها الطويلة في الجهاد والكفاح والتضحية والصبر ، وليست منة من حاكم منافق ، ولا شطحة من قلم منزلف ، ولا نفاقا من عابر سبيل دفعته مصالحه الخاصة الى تملق السيد الطاهر لقضاء هذه المصالح !...

ان محمد علي الطاهر امة وحده

ارانى اطلت الوقوف عند كلمة « المجاهد العربي الكبير » ذلك ان هذا اللقب على ما يحمل من معاني وقيم ، ليس في الواقع اول ما يملك السيـد الطاهر من صفات ولا آخرها ، فاستاذنا الكبير الى جانب ما قدمه لامته وقومه ووطنه بعد صراع من الاستعمار ، من اضاحي للاستقلال ، وذب عن الحرية في مختلف الصور والظروف والاشكال ... الى جانب ذلك فانه كـان ولا يزال يمارس حياته اليومية من خلال المثاقب والشمائل التي جعلها شعارا له مع المتصلين به من العشراء والاهل والاخوان . وهي مفاهيم اصيلة تنهض عـلى طبيعة فطرية جعلت من صاحبها اسلوبا حساسا للحيـــاة الاجتماعية التي تواضع الناس على ان ياخذوا انفسهم ومن حولهم بها .

واكاد استطيع ان اجزم قاطعا ، لو ان انسانا الزم نفسـه بالاسلوب الاجتماعي الذي يلتزمه محمد علي الطاهر في ذاته وفي صلته بالاخرين ، لما استطاع الى ذلك سبيلا ولو انفق عمره وهو يراقب نفسه او ينقد ذاته ... وعلة ذلك فيما اخال ، ان اعصاب السيد الطاهر تمتاز بحساسية تلقـائية عجيبة ، بلغت سن الارهاف والدقة بحيث يتمكن صاحبها من الاندماج عفويا بما حوله من ملابسات وظروف ، فيتجاوب معها الى القدر الذي يجعله متمكنا منها ، ومسيطرا عليها ، وقادرا على المبادرة فيها .. وانها لظاهرة فريـدة تعطينا فكرة واضحة عن المواهب الخارقة التي يتمتع بها الاستاذ الطـاهر ، والتي يندر ان تتكرر في اشخاص عديدين في آن واحد .

ولعلي لا ازيح سترا ولا اكشف سرا اذا اكدت هنا ، مـــا كنت لمحت اليه قبل عتبة ، من ان الاسلوب الاجتماعي للسيد الطاهر هو طراز قاس ، ومحفوف بالصعوبات القصوى . واذا قدر لاي انسان ان يجاريه في طريقـة

ممارسته للحياة ذاتيا واجتماعيا فسوف يجد نفسه فريسة تجـارب مضنيـة تجعله نهبة للمضايقات والمتاعب والقيل والقال ، ورغم ذلك ، فلست اعتقد بانه سيتمكن من التحصن بها والاستقرار عليها ، على نحو ما اتيـح للسيد الطاهر ان يفعل بفضل قوته النفسية ، التي تقوم على دعائم اربع : براعـة في البيان اذا امسك القلم ، وذرابة في الحديث اذا اطلق اللسـان ، وشجاعة في القلب اذا واجه الازمات ، وانفساح في الذهن اذا أعضلت الامور .

لذلك فانه من الخير لجلساء السيد محمد علي الطاهر عـلى انفراد ، او على ملأ من الناس في ندوته ، ان يكتفوا بما يتركه اسلوبه الخاص فيهم من آثار نفسية ، وانطباعات ذهنية ، ولا يتطـالوا الى تجـاوز ذلك في طلب محاكاته ، لانهم ــ واقولها جازما من غير تردد ــ لن يستطيعوا لا معه ولا مع انفسهم صبرا ..

فوق كل ذلك عند ابي الحسن واولاد بيته وجيله

على انه طوبى لاولئك الذين اوتوا القدرة على ان يكفكفوا من غـرب اعصابهم ويرتاضوها على نهج ابي الحسن فيفوزوا فوزا عظيما . انه حينئذ سيجعل ذاته وما له ، وما يقدر عليه في خدمتهم ماديا ومعنويا . مـــا هـو تحت طائلته مباشرة او تحت امكانه بالواسطة ، دون من ولا أذى ، ولا شره للدعاوة ، ولا خفة الى الاستغلال ، بل عن تبتل صادر عن حب للمؤازرة المجردة عن هوى الطمع الرخيص ، فيما ألفه الناس في مثل هذه الحالات مـن تعفف صاحب الحاجة بذل النفس ، او بذل النفيس .

ولقد بلوته ، علم الله بنفسي ، فوق الذى سمعته عنه ، فرأيت منه مـا زادني اقتناعا به وحرصا على مودته ، وازعم لو اني اقسمت بالله غموسا أوثق الايمان واغلظها ، بان عطف ابي الحسن على اخوانه لا تزيده عاطفتـه على ولديه من ذكر وانثى، وهو لم ير لنفسه من زينة الحياة الدنيا سواهما، لصح مني القسم دون ان يلحقني منه اثم ولا حرج .

ابو الحسن : ابو الوفاء والمروءات

والحق ان السيد محمد علي الطاهر ، هو في هذا المجال طاهرة يتيمة، اذ هو نسيج وحده بما هو عليه من روح الاندفاع في اغـاثة الملهوف ونجـدة المحتاج . والاستجابة لدواعي المروءة والنخوة والاريحية . حتى اصبح مـن

المعروف ان جهده لغيره من صحابته وغير الصحابة ، يبلغ اقصى ما يقتضيه طبيعة العلاقة بين صاحب الحاجة وقاضيها ..

ولست ابالغ اذا اكدت انه في غيرته وصدق بلائه في بذل المعروف ، قد عكس هذه العلاقة بين صاحب الحاجة والموكل في قضائها ، اذ قلبها استاذنا الطاهر رأسا على عقب، حين تجده يلاحق صاحب هذه الحاجة ليخدمه بينما العكس هو الواقع المالوف !..

وكان من المفروض ان تفعل الحوادث والاحداث وتغير الزمان والرجال، هذه الطوارئ كلها او بعضها على الاقل فعلها في اخلاق ابي الحسن ، ولا سيما بعد الذي لقيه من جحود الجاحدين ، واساءة المسيئين وازورار الاصدقاء الذين كانوا يطلبون الارتفاع بواسطته الايام والسنين ، فأصبحوا يتواطأون عليه مع الايام والسنين ، غير ان الذي حصل ، هو ان ابا الحسن ، بقي حيث رضي عن نفسه ورضيت نفسه عنه ، في المكان الذي وضعته فيه المروءآت الماجدة التي عرفته واحدا من رعاتها وحماة ذمارها ...

حمال اثقال اقوام اذا افتدحوا حلو الشمائل تحلو عنده نعم !.

واذا كانت اخلاق السيد محمد علي الطاهر تتأثر سلبيا بعوامل الناس الذين تعصف باخلاقهم الايام هذا وجزرا ، فان هذه الاخلاق من الناحية الايجابية قد تضاعف اندماجها وامتزاجها بأولئك الذين حفظوا له اياديه وتجاوبوا مع مبادئه ، وبذلوا حياله من الصداقة الصادقة ما يتفق وعاطفته نحوهم ، فازداد لهم وفاء وعرفانا ، واقبل عليهم ان كانوا حاضرين ، وعلى ذكرهم بما يحبون ان كانوا غائبين ، بلسانه الطلق ، وفي مقالاته البليغة ، ببراعه البارع ، مغدقا عليهم من الحمد والثناء والتنويه ما يغرى القلوب المغلقة بالجحود ، بأن تتفتح بالشكر لمن احسن اليها ، وبالعرفان لمن اغدق معروفه عليها ..

يتحدث بلبه وجسمه واعصابه

وحديث ابي الحسن ، عن مزايا الذين يعرفون له الفضل ، ويشهدون على الملأ بسابقته في العمل المخلص للعروبة والاسلام ، ويتناوله جليسه بقلبه قبل سمعه ، ويرتاح اليه بجميع مشاعره واحاسيسه ، لما هو عليه من طابع الصدق في الاداء ، والاخلاص في الواقع ، والحرارة في الروح ، حتى يتمنى السامع لو أنه يستطيع ان يغرى ابا الحسن في ان يجعل له من لسانه نصيبا في واحد من المجالس التي يعمرها ، او بالاصح يفجرها ،

بشلال متدافق من احاديثه التي ينطلق بها لسانه المهذب ، من كل شاردة وواردة ، في قديم العهد او حادث الايام ، تساعده فيما هو يتحدث ، يداه في الحركات المعبرة ، وعيناه بالنظرات الفاحصة ، واحيانا بجميع اطراف جسمه الذي يتحدى السنين ذوات العدد ، بحيوية ونشاط ، اذ قد ينهض منتصبا على قدمين ثابتين وكأنه في موقف الخطيب الواعظ ، او المحدث المرشد ، ليضفي على كلامه الدسم ما يرغب فيه من تأكيد لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، او نفي لا يرقى الى صحته الشك، او غير ذلك من التلميح الذي لا يغني عنه الا التصريح ، مما قد لا يكفيه الكلام العادي لتحقيق الغرض من روايته او تكرارها !...

يطوي بذاكرته السنين ويقدم بيده الوثائق

وابو الحسن ، هو ذلك الرجل الذي يجعل السامع في مجلسه ينتقل معه من عقد الى عقد ، بين عشرات السنين ، بل مئاتها ، دون ان يحس بفارق الزمن ، حتى لتكاد الحادثة التي يرويها تبدو كأنما تجرى وقائعها اليوم ، وابطالها الغابرون كأنهم معنا احياء يرزقون !؟.

« ... حكي والله اعلم ... منذ ثلاثين عاما ... » ويتابع اللسان الذي لا يمل سامعه نبرته الحبيبة .. والى جانب الصوت المنطلق على سجيته في رنة موسيقية تشتاقها الاذواق السليمة ، يأتي بملف ينوء بالاوراق التي انطوت بين سطورها الباهته ذكريات وذكريات .. بعضها مطبوع بالآلة الكاتبة ، وآخر مكتوب باليد ، وطائفة من الاوراق المهلهلة التي نامت بحجل السنين منذ حوالي ستين عاما او ما يزيد ، كما ضاقت بما فيها من وقائع تشهد لبعض الرجال بالاخلاص ، كما تقرر ادانة رجال آخرين ... وطوبى للاولين في مجلس ابي الحسن ، والويل كل الويل للاخرين !...

ملفات منسقة في الذهن والخزائن

والذي يثير الدهشة ، ويبعث على العجب ان هذه الاوراق سرعان ما تستجيب لموضوع الحديث الذي يردده ابو الحسن ، حتى لكأنما وضعها صاحبنا سلفا على طاولة البحث قبل اجتماع شمل الزائرين . وليس هناك شيء من هذا قد حصل ، ولكنها دقة الرجل الذي عاش اضخم مرحلة انتقالية في تاريخنا العربي في العصر الحديث ، ووعاها بقلبه وعقله وسائر اعصابه، حتى اصبح شخصه مجموعة من «الارشيف» المتحرك الناطق عما عرف ووعى

وما عاش به . فلا يخطر على بال جليسه سؤال في اى موضوع يتصل بالحياة العامة للعرب ومجادهم ، اليوم او بالامس القريب ، الا كـــان له الجواب الضافي الشافي ، والى جانبه الاوراق والوثائق بشكل دقيق ، تكـــاد تعجز عنه الدوائر المختصة لارقى وزارات الخارجية في العالم !...

انه عنوان مثير لقضية فلسطين

ومحمد علي الطاهر فوق هذا وذاك ، لم يعد واحدا من اولئك الرجـال الذين يمرون في حياة الناس لفترة متحجرة من الزمان والمكان ، ولكنه اصبح في تاريخ امتنا عنوانا مثيرا لاخطر قضية قومية واجهتنا حتى الان ، وربمـــا الى الابد وهي قضية « فلسطين » التي تراكمت ظلالها القاتمـــة على وجـود العرب والمسلمين في كافة اقطارهم ومصارهم .

ويكفي ان نذكر فلسطين ليبرز اسم الطاهر من خلال مأساتها ، كالعلم الذي يرتفع في المعركة الضارية رمزا للبلاء والفداء والصمـــود ، الذي لا تصرعه جراح الاحداث، ولا سهام الاعداء، ولا نوازل النكبات، اجل انه كالعلم الذي يبقى مرتفعا خفاقا ليعلم الناس كيف يحيلون ضعفهم قوة ، وعزيمتهم انتصارا ، وآلامهم آمالا ...

ابو الحسن مدرسة حافلة بالمناقب

ولا غرو فان ابا الحسن الذي وعى رسالة الوطنية الصادقة ، وعاشها بدمه واعصابه وفكره وقلبه ، لم يعد فقط في ضمير المواطنين في دنيا العروبة والاسلام والاقطار المظلومة انسانا ممتازا وحسب ، بل اصبح بكل ما هو فيه وما هو عليه ، مدرسة حافلة بالمناقب والتقاليد الكريمة والشمائل السامية، تهوى الى رحابها افئدة المخلصين من كل حـــدب ومـن كل صوب ، لعـــلهم يجدوا فيها قبسا ينير لهم سواء السبيل في الجهاد ، من اجل الحق المجرد عن الهوى ، ومن اجل الصدق الخالص من الرياء ، ومن الخير الذي لا يشوبه الطمع الا في مثوبة الله وجزائه .

واذا كان المرء العادي يتلمس الامان لنفسه حين تعصف به المتـاعب ، او تاخذ بتلابيبه النكبات ، فان ابا الحسن قد استطاع ان يجعل من المتاعب والنكبات التي تواطأت عليه سلما ثابتا يرقى عليها الى المكانة التي يتهـافت على بلوغها الطامحون الى الرفعة والخلود من العظماء والحكام والملوك ...

واشهد لو ان المحن التي اضطربت في حياة ابي الحسن ، لقي مثلهـــا القوم أولو القوة والعدد ، لوهنت منهم العزيمـة ، ولغاض فيهم الامل ، ولطبع الفشل على نواصيهم بخاتم الذل والصغار ، بينما صاحبنا الطاهر الاروع لم تزده النوازل الا قدرة ومهابة وخطرا ، وجعلت منه رجلا يتطاول الى محبتـه المخلصون ، كما يتناءى عنه مخافة الطغاة الجبارون .

الاكاديمي

ان محمد علي الطاهر الذي بدا حياتـه العلمية في الكتابـة على لـوح من الصفيح الذي كان يتخـذه ابناء القرن التاسع عشر اداة لتعليم كتابـة حروف الابجدية في الكتاتيب البدائية ، ما لبث ان اصبح بعد سنين من عمره المبارك صاحب ندوة فكرية تنتظم اعاظم العلماء من مشرق الارض الى مغربها ، هـذه الندوة التي وسمها احـد كبـار الشخصيات العلمية في لبنـان بطابع « الاكاديمي » فذهب الطابع عليها مثلا يذكرنا بمجالس أهل العلم في بغـداد والكوفة والقيروان وغرناطة وغيرها ، مما يعتز به تراث المعرفـــة في دنيـــا العروبة جيلا بعد جيل ...

وكثيرا ما رأينا اهل الوجاهة والفضل وزعماء الرأي ، يحرصون عـلى شهود هذه (الاكاديمي) في دار الاستاذ الطاهر ، مستانسين الى ما يدور فيها من احاديث عجنت بتجارب الامم على انواء الحكماء من اهل السياسة والثقافة والوطنية الصحيحة ..

واني اذ اشير الى هذه (الاكاديمي) أجدني لا اكتم شوقي الى مجلسهـا يوم الاثنين من كل اسبوع ، حتى لكأني احسب هذا المجلس هـــو الرواق المفضل الذي يعوضني الفراغ الموحش الذي يفصلني عن مجتمـــع تردت فيه القيم الى الدرك الاسفل من النفاهات والمتناقضات ..

اما بعد ،

فهذه عجالة ، صورت في كلماتها بعض ما انطبع في نفسي عن شخصية « المجاهد العربي الكبير » الاستاذ محمد علي الطاهر ، الذي احمد الله على اني ادركته ونعمت بغيء شمائله ، التي جعلت منه اسوة حسنة ، في زمن شـــح فيه المثل الصالح بين الناس ..

والله أسال ان يمد لامته في عمره ، ويبارك في سعيـــه وان يعطيه في الدنيا ما يحقق رجاءه ، وان يثيبه في الاخرة بما يكافيء بلاءه ، انـــه سميع مجيب الدعوات رب العالمين ٠

(بيروت) في اكرم الربيعين من سنة ١٣٨٥ هجرية

الموافق في تموز (يوليو) ١٩٦٥ ميلادية

الشيخ طه الولي

طبعت في مطبعة البيان في بيروت ـ لبنان

بيروت في { رمضان المبارك ١٣٨٥ هـ
كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦ م.